المُحاضَرات

في الأدَب واللّغـَـة

تأليف

الحسَن اليوسي

(المتوفى عام 1102 هـ)

الجزءُ الأوّل

تحقيقُ وشرح

محمد حجّي

أحمد الشرقاوي إقبال



الطبعة الأولى 1982 م
الطبعة الثانية 2006 م

دار الغرب الإسلامي
ص. ب. 5787-113 بيروت

المحاضرات

في اللغة والادب

مقدمة الطبعة الثانية

ترجمة اليوسي في نصوص منسوبة

اسمه ونسبه وكناه

عرف اليوسي باسمه ونسبه في المحاضرات فقال :

« أنا الحسن بن مسعود بن محمد بن علي بن يوسف بن أحمد بن إبراهيم ابن محمد بن أحمد بن علي بن عمرو بن يحيى بن يوسف ، وهذا هو أبو القبيلة ابن داوود بن يدراسن بن يلنتن . . . » .

وشرح فيها نسبته باليوسي فقال :

« . . . وأما اليوسي فأصله اليوسفي كما مرّ من أن يوسف هو أبو القبيلة ، وهم يسقطون الفاء في لغتهم . . . » .

وأورد بها كناه ومن كناه بها من الأشياخ والفضلاء فقال :

« والكنية أبو علي وأبو المواهب وأبو السعود وأبو محمد ، أما أبو علي وهي كنية الحسن المشهورة فكناني بها شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي ، وأما البواقي فكناني بها فضلاء من الإخوان في رسائلهم . . . » .

أولية أمره

وذكر اليوسي أولية أمره في **فهرسه** فقال :

« كنت في صغري نفوراً عن التعليم ، فكنت أتنكب المكتب وأكمن في طريق الصبية حتى إذا خرجوا من المكتب جئت معهم إلى أهلي كأني قد قرأت معهم ، وسبب ذلك أني كنت شديد الحياء في صغري حتى كان الحياء يمنعني من ضروريات نفسي لأنه ألقي في وهمي أن من دخل المكتب كيف يتأتى له أن يخرج في قضاء حاجة الإنسان وكيف يمكنه أن يذكر ذلك ويشاور عليه المؤدب ، فلم يمكني إلاّ الهروب ، فمكثت على ذلك مدة ، ثم توفيت والدتي فتنكرت علي الأرض وأهلها

فما الناس كالناس الذين عهدتهم ولا الدار كالدار التي كنت تعرف

وكان ذلك سبب الفتح ، فألقى الله في قلبي قبول التعليم فدخلت أتعلم ، ولم ألبث إلاّ قليلاً حتى جعلت أطلب والدي أن يقربني إلى الأمصار طلباً للقراءة ، فقربني لناحية القبلة فختمت القرآن العظيم ، ثم رجعت لبلادنا فذهبت لزيارة الولي الصالح سيدي أبي يعزى ، وقد وقع في سمعي أن الناس يطلبون الحوائج عنده ، فحضر في قلبي ثلاث حوائج : العلم والمال والحج ، وذلك مبلغ عقلي في صغري ، فحصل ذلك والحمد لله ، وكان معلمي للقرآن هو أبو إسحاق بن يوسف الحداد اليوسي ، واستفدت منه فوائد ، وكان عنده مجموع فيه **المورد العذب وبحر الدموع** للإمام ابن الجوزي ، فكنت آخذه أنظر فيه حكايات الصالحين كأويس القرني ، وإبراهيم بن أدهم ، وإبراهيم الخواص وغيرهم ، فانتقشت تلك المآثر في عقلي ووقعت حلاوتها في قلبي فكان بدءاً لما أنعم الله به عليّ من الإيمان بالطريقة ومحبة أهلها والتسليم لهم ، ثم شرعت في طلب العلم إلى أن فتح الله عليّ بما فيه فتح ، وكانت قراءتي

كلها أو جلها فتحاً ربانياً، ورزقت — ولله الحمد — قريحة وقادة وفطنة ذكية فكنت بأدنى سماع وأدنى أخذ ينفعني الله ؛ فقد أسمع بعض الكتاب ويفتح الله عليّ في جميعه فتحاً ظاهراً وأبلغ فيه ما لم يبلغه من سمعته منه ؛ ورب كتاب لم أسمعه أصلاً غير أن سماع البعض في كل فن صار بدواً للفتح وتتميماً لحكمة الله في سنة الأخذ عن المشايخ . ولا تستوحش مما ذكرناه من قلة سماع الكتب والفنون ظناً منك أن الربح يكون أبداً على قدر رأس المال كلاّ فقد يبلغ الدرهم ألف مثقال ، وما ذلك على الله بعزيز ، انتهى من الفهرسة باختصار وزيادة ونقص » .

نقلاً بالنص الحرفي التام عن « صفوة من انتشر » للافراني (ص 206 — 207) .

رحلته في طلب العلم ولقاء الأشياخ

أما رحلاته في طلب العلم ولقاء الأشياخ فيقول عنها الكتاني في **فهرس الفهارس** (2 : 465) ما نصه :

« جال المترجم في بلاد المغرب حاضره وباديه لأجل طلب العلم وخصوصا بالصحراء وبلاد البربر وسوس وبلاد الساحل ، وأخذ عن أعلام فصل أخذه عنهم تلميذه الهشتوكي في « قرى العجلان » وإن لم يذكر ذلك هو في فهرسته ، على أنه لم يكملها ، نعم يروي عامة عن أبي عبد الله بن ناصر الدرعي ، وشيخه ابن سعيد المرغتي السوسي ، ومحمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي المعروف بالمرابط ، وأبي السعود عبد القادر الفاسي » .

ثم يقول عنه — بعد — رواية عن المسناوي تلميذه :

« لم يكن له اعتناء بالرواية . وإنما كان الغالب عليه الدراية » .

وتصوف اليوسي على يد الشيخ أبي عبد الله بن ناصر ، أخذ عنه العهد ، وصار يلقن طريقته للمريدين ، وفي هذا الشأن يقول الافراني في **الصفوة** (ص 209) :

« وأما علم الباطن فعمدته فيه هو الإمام أبو عبد الله بن ناصر ، هو طبيب علته ومبرد غلته ، قال في **الفهرس** : هذا الشيخ هو الذي أخذنا عنه العهد والورد ، وإليه ننتسب ، وكل من نذكره سواه فإنه على طريق انتفاع ما انتهى ».

واليوسي هو الذي أنشأ الزاوية الناصرية القائمة بمراكش والواقعة بحي روض العروس قريباً من ضريح الشيخ أبي عمرو القسطلي وضريح الشيخ الجزولي أخبر بذلك العباس بن إبراهيم في **أعلامه** (3 : ص 163) فقال :

« والمترجم سيدي الحسن اليوسي هو الذي أنشأ الزاوية الناصرية برياض العروس بمراكش على ما حدثني به سيدي الأمين الناصري » .

ثناء العلماء عليه

نعته الشيخ محمد المرابط الدلائي في إجازته له فقال :

« . . . الصدر الرئيس ، فارس الإملاء والتدريس ، شيخ الجماعة بالديار البكرية ، والحضرة الدلائية ، ذو التدقيق المعهود أبو الحسن بن مسعود ، صاحب النباهة الشامخة ، والنزاهة الباذخة ، والجلالة العليا ، والهمة التي نيطت بالثريا ، المتمسك من الرواية بأسبابها ، ومن النزاهة بأهدابها ، من ألقت إليه المعارف زمامها ، وجمعت السيادة ما وراءها من المجد وأمامها ... ».

(**فهرسة اليوسي**) مخطوطة الخزانة العامة (رقم 1234 ورقة 67)

وقال عنه أبو محمد عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي فيما أجازه به :

« . . . الفقيه العلاّمة ، المحقق الفهامة ، الصدر الأوحد ، والعلم المفرد ، رئيس الإقراء ، والمتهيىء للمناصب العلمية الشماء ، الباذل في إيصال النفع لطالبيه غاية المجهود ، أبو علي الحسن بن مسعود . . . » .

« **نشر المثاني** » لابن الطيب القادري (2 : 146 ـ 147) طبع الحجرية بفاس ١٣١٠ هـ .

وقال عنه الافراني في **الصفوة** :

« وكان أبو علي رحمه الله تضلع في العلوم العقلية وبرز فيها على أبناء وقته حتّى قال في تأليفه المسمى « **بالقول الفصل ، في الفرق بين الخاصة والفصل** » إنه بلغ درجة الشيخ سعد الدين التفتازاني والسيد الجرجاني وأضرابهما بحيث يقبل من كلام العلماء ويرد ، وسأله يوماً سائل بدرسه عن مسألة فقال له : اسمع ما لم تسمعه من إنسان ، ولا تجده محرراً في ديوان ، ولا مسطّراً ببنان ، وإنما هو من مواهب الرحمان » .

نقلاً عن **صفوة من انتشر** للافراني (ص 208) .

ثم زاد يقول :

« وكان شاعراً مفلقاً ، النظم عنده أسهل من التنفس حتّى كان يقول لو شئت ألا أتكلم إلاّ بالشعر لفعلت » . **صفوة من انتشر** (ص 210) .

وذكره ابن زاكور في **نشر أزاهر البستان** (ص 88) فقال بشأنه :

« . . . حبر الأحبار ، وجهينة الأخبار ، وزين القرى والأمصار ،

العظيم النظير في سائر الأقطار . من أسعد بمطالع أنواره كواكب نحوسي ، وأعراني من ملابس بوسي . وألحفني بمطارف المسرات عن حنادس عبوسي . مولاي أبو علي سيدي الحسن بن مسعود اليوسي . . . » .

وقال عنه ابن الطيب القادري في **نشر المثاني** (2 : 142) المطبعة الفاسية 1310 هـ :

« الإمام الكبير ، المحقق الشهير . . . كان عالماً ماهراً في المعقول والمنقول ، وأقبل عليه الناس إقبالاً عظيماً ، فكان حيثما قرأ أطبق عليه الناس . وكان آية في الأدب والنقل والإدراك ، وحفظ كلام الأدباء ، يستحضر ديوان أبي تمام وأبي الطيب والمعري ويسرد قصائد عن ظهر قلب » .

ثم قال عنه (2 : 151) :

« وكان له أصحاب وأتباع وإقبال من الناس ، ولا يكون مجلسه إلا غاصاً بالأعيان . وكان محققاً للدراية والرواية ، له عارضة كبيرة في النقل والتحقيق وحكي لنا أنه بقي في تدريس تفسير الفاتحة بفاس نحو ستة أشهر... ».

وأطراه الكتاني في فهرس الفهارس (2 : 464) فقال :

« . . . عالم المغرب ونادرته وصاعقته في سعة الملكة وفصاحة القلم واللسان مع الزعامة والإقدام والصدع بما يتراءى له وكثرة التصنيف على طريق بعد العهد بمثله وهو الكلام المرسل الخالي من النقل إلا ما لا بد منه . . . » .

ونوه الحجوي بمشاركته ورياسته في الفكر السامي (4 : 116) فقال :

« . . . فقيه ، أصولي ، لغوي ، أخباري ، أديب ، شاعر ، نظار ،

مشارك . ماهر في الفنون . انتهت إليه الرياسة الكبرى في العلم في وقته . وله شهرة ذائعة في المغرب والمشرق . . . » .

مجدد المائة الحادية عشرة

ارتفعت مكانة اليوسي عند الناس وعلا مقامه بين أهل العلم حتى ادعي له أنه مجدد المائة الحادية عشرة ، وفي هذا الشأن يقول الافراني في **الصفوة** (ص 208) :

« . . . وبالجملة فهو آخر العلماء بل خاتمة الفحول من الرجال حتى كان بعض أشياخنا يقول : هو المجدد على رأس هذه المائة لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار إمام وقته وعابد زمانه » .

وفي **سلوة الأنفاس** للكتاني (3 : 82) :

« . . . وقد عد من المجددين على رأس القرن الحادي عشر . . . » .

وجاء في **أعلام** العباس بن إبراهيم (3 : 162) رواية عن : « **إفادة التنبيه ، فيمن ادعى الاجتهاد أو ادعي فيه** » ما نصه :

« ومنهم عالم المغرب ونادرة الدنيا في وقته الحسن بن مسعود اليوسي رضي الله عنه سمعت من يقول من وعاة التاريخ ببلدنا : لو كان له مذهب لاتبع » .

وفاة اليوسي

« ومما يعد من مناقبه أن قوماً ذهبوا لزيارته فبينما هم في الطريق رأى رجل منهم في نومه أن الشمس قد غربت فقصها على أصحابه فقالوا له : لعل الشيخ قبض الليلة . فلما بلغوه وجدوه قد توفي تلك الليلة » .

صفوة من انتشر (ص 210) .

« توفي رحمه الله ورضي عنه عقب قفوله من الحج يوم الاثنين خامس عشر ذي الحجة عام اثنين ومائة وألف ودفن بموضع يعرف بتمزيزت بقرب قرية صفرو على نصف مرحلة من فاس ونقل من مدفنه بعد نحو عشرين سنة إلى موضع آخر هنالك فوجد كما دفن رضي الله عنه على ما حكي ، ومثل هذا معلوم لغير واحد من أولياء الله » .

نشر المثاني ج 2 ص 151 . الطبعة الفاسية 1310 هـ .

وقال الكتاني في **السلوة** (3 : 81) عن قبره :

« . . . وهو في قبة رفيعة أنيقة عليه دربوز يزار به . . . » .

مراجع ترجمة اليوسي

* **التقاط الدرر ، ومستفاد المواعظ والعبر ، من أخبار أعيان المائة الثانية والحادية عشر** ،للقادري . مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم 676 د .
* **الأدب المغربي** لابن تاويت وعفيفي،ص 311 وما بعدها،الطبعة الأولى بيروت 1960 .
* **الاستقصا** للناصري ، ج 7 ص 108 ـ 109 ،طبعة دار الكتاب المغرب .
* **إظهار الكمال،في تتميم مناقب سبعة رجال** ، للعباس بن إبراهيم التعارجي، ص 286 ـ 288 المطبعة الحجرية بفاس .
* **الأعلام** لخير الدين الزركلي ، ج 2 ص 227 ـ 228 ،الطبعة الثانية .
* **الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام** ، للعباس بن إبراهيم التعارجي ، ج 3 ص 154 ـ 163 ،المطبعة الملكية بالرباط 1975 .
* **تاريخ الأدب العربي** لكارل بروكلمان ، الملحق (2 : 675 ـ 676) .
* **تاريخ أدب اللغة العربية** لجرجي زيدان،ج 3 ص 306 ـ 307،طبعة دار الهلال 1975 .

* **تاريخ تطوان** ، لمحمد داوود . القسم الثالث من المجلد الأول ص 411 — 415 ، تطوان 1959 .

* **تاريخ الشعر والشعراء بفاس** ، لأحمد النميشي ، ص 32 ، فاس 1924 .

* **الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية** ، للدكتور محمد الأخضر الطبعة الأولى ، الدار البيضاء 1977 .

* **الدرر المرصعة ، في أخبار أعيان درعة** ، لأبي عبد الله محمد المكي بن موسى الناصري ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم 265 ك .

* **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ، لابن سودة .ج 1 ص 88 — 188 ج 2 ص 312 .

* **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي** ، للدكتور محمد حجي ، الرباط المطبعة الوطنية 1964 .

* **سلوة الأنفاس ، ومحادثة الأكياس ، عمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس** ، لمحمد بن جعفر الكتاني ،ج 3 ص 361 — 362 ، المطبعة الحجرية بفاس 1316 هـ .

* **شجرة النور الزكية ، في طبقات المالكية** ، لمحمد بن محمد مخلوف ص 328 — 329 ، نشرة دار الكتاب العربي ببيروت .

* **صفوة من انتشر ، من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر** ، لمحمد الصغير الافراني ، ص 206 — 210 ، المطبعة الحجرية بفاس دون تاريخ .

* **الفكر السامي ، في تاريخ الفقه الإسلامي** ، لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي ، ج 4 ص 116 ــ 118 .

* **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات** ، للشيخ عبد الحي الكتاني ،ج 2 ص 464 ــ 470 ، فاس سنة 1347 هـ .

* **مؤرخو الشرفاء** لليفي بروفنصال ص 189 ــ 191 ، ترجمة عبد القادر الخلادي ، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1976 .

* **معجم المؤلفين** ، لعمر كحالة . ج 3 ص 394 ــ 395 .

* **معجم المطبوعات** ، ليوسف اليان سركيس ، 1959 .

* **مناقب الحضيكي** ، ج 1 ص 295 ــ 301 ،المطبعة العربية بالدار البيضاء 1357 هـ .

* **المنزع اللطيف ، في التلميح بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف** ، لابن زيدان ، ص 309 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم 395 .

* **النبوغ المغربي،في الأدب العربي** ، لعبد الله كنون ،ج 1 ص 285 ــ 286 ج 2 ص 307 ــ 314 ج 3 ص 37 ــ 38 ، دار الكتاب اللبناني (بيروت) 1961 .

* **نزهة الحادي** ، لمحمد الافراني ، ص 245 وما بعدها .

* **نشر أزاهر البستان ، فيمن أجازني بالجزائر وتطوان** ، لمحمد بن قاسم ابن زاكور ، ص 88 ــ 90 ، المطبعة الملكية بالرباط 1967 .

- **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني** ، لمحمد بن الطيب القادري ج 2 ص 142 ـ 151 ، المطبعة الحجرية بفاس 1310 هـ .

- **يتيمة العقود الوسطى ، في مناقب أبي عبد الله محمد المعطي** ، لمحمد العبدوني ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم 305 ك .

- **اليواقيت الثمينة ، في أعيان مذهب عالم المدينة**،لمحمد البشير الأزهري ، ج 1 ص 133 ـ 135 ، مطبعة الملاجيء العباسية مصر 1324 هـ .

- **اليوسي ـ مشاكل الثقافة المغربية في القرن السابع عشر** ، للمستشرق الفرنسي جاك بيرك ، باريس موطون ومن معه ، لاهاي ، 1958 .

آثار اليوسي

خلف اليوسي نيفاً وأربعين أثراً كتابياً ما بين كتاب ورسالة وهذا مسرد بطائفة منها :

(1) أربعة وعشرون سؤالاً في مصاحبة الشيخ وتأدية الأوراد . . . الخ

يوجد مخطوطاً بالخزانة العامة بالرباط برقم 612 ج ضمن مجموع (من ورقة 48 ب / إلى 52 / أ) .

(2) تأليف في العكاكزة (من الفِرَقِ المغربية الضالة) .

يوجد مخطوطاً بالخزانة العامة بالرباط برقم 1224 د ضمن مجموع (من ورقة 167 ــ 168).

(3) حاشية على كبرى السنوسي .

توجد مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط برقم 2645 ك وبمكتبة القرويين بفاس وبالمكتبة الحمزاوية وبدار الكتب المصرية .

(4) الديوان .

يوجد مخطوطاً بالخزانة العامة بالرباط وبالجزائر وباريس وصدرت له طبعة على الحجر بفاس .

(5) رسالة في نعيم أهل الجنة .

توجد مخطوطة بمكتبة ابن غازي بمكناس .

(6) زهر الأكَم في الأمثال والحِكَم .

منه مخطوطات بالخزانة العامة بالرباط بالأرقام التالية (71 د 191 د 1001 د 1159 د 596 ج 178 ج) ويوجـــد مخطوطاً بمكتبة الجزائر (184280) وبمكتبة القرويين بدون رقم وبدار الكتب المصرية (14097 — 14842) أدب وبالمكتبة الوطنية بباريس (52304) .

وهو على وشك أن يصدر محققاً عن معهد الدراسات للتعريب بالرباط .

(7) فهرس اليوسي .

يوجد مخطوطاً بالخزانة العامة بالرباط (1234 ك) ضمن مجموع (من 103 — 147) .

وبشأنها يقول الكتاني في فهرس الفهارس (2 : 465) ما نصه :

« ولليوسي فهرسة ملأها علماً وتطاولاً بعد العهد بمثله ، وكان يريد إخراجها في جزء كبير ، ولكن لم يكملها ، والذي تم منها في نحو خمس كراريس ، قال في أولها إنه رتبها على مقدمة تشتمل على فوائد وخمسة فصول : الفصل الأول في ذكر أشياخه في التعليم مع الإلمام بشيء من الفوائد الواقعة معهم ، الثاني في ذكر الأشياخ في الدين ولو بطريق التبرك ، الثالث في ذكر شيء مما ألهم الله في آية أو حديث أو شعر أو كلام من فهم طريق الإشارات ، الرابع في ذكر شيء مما خوطبت أو خاطبت به من نثر أو نظم ، الخامس في جمع الفوائد الملفوظة من أي نوع كان » .

(8) القانون (موسوعة) .

يوجد مخطوطاً بالخزانة العامة بالرباط وبالمكتبة الوطنية بباريس . طبع على الحجر بفاس عام 1310 هـ ثم عام 1315 هـ .

(9) القصيدة الداليّة .

في مدح الشيخ محمد بن ناصر .

توجد منها نسخ خطية بالخزانة العامة بالرباط وبمكتبة القرويين وكذا بالقاهرة وباريس .

وطبعت مع شرحها بمصر عام 1291 هـ ثم عام 1329 هـ .

(10) قواعد الإسلام ، من مضمون حديث النبي عليه السلام .

(مضمونه واجبات المكلف) .

يوجد مخطوطاً بالخزانة العامة ضمن مجموع (ورقة 27/ أ ــ 42 / أ) .

(11) القول الفصل ، في الفرق بين الخاصة والفصل .

مخطوط بالخزانة العامة برقم (1072) د ضمن مجموع (من 196ـ223)

(12) الكناشة العلمية .

أودع فيها أشياء من التفسير والحديث والتصوف والتاريخ .

وتوجد مخطوطة بالمكتبة الملكية بالرباط .

(13) المحاضرات .

سيأتي الكلام عنها بعد .

(14) مشرب العام والخاص ، من كلمة الإخلاص . أو منهج الخلاص من كلمة الإخلاص .

طبع على الحجر بفاس عام 1327 هـ .

(15) **منظومة في بحر الرجز** تشتمل على التوحيد والطهارة والصلاة والزكاة والحج والتصوف على مثال **المرشد المعين** لابن عاشر .

منها مخطوطة كتبت في حياة المؤلف عام 1099 وهي محفوظة بالخزانة العامة بالرباط برقم 1164 د ضمن مجموع (من ورقة 124 / أ ـ 131/ب).

(16) **نفائس الدرر على شرح المختصر** للسنوسي (في المنطق) .

يوجد مخطوطاً بالخزانة العامة بالرباط (1072 د) ضمن مجموع من ص 52 إلى ص 195) (1751 ك) وفي مكتبة القرويين بدون رقم ، وبمكتبة الجزائر ومكتبة باريس .

(17) نيل الأماني ، في شرح التهاني .

هو شرح على داليته في مدح الشيخ محمد بن ناصر .

يوجد مخطوطاً بالرباط والجزائر والقاهرة وباريس .

وقد طبع مع الدالية بالإسكندرية عام 1291 هـ ثم بالقاهرة عام 1329 هـ .

ثم انظر فهرساً مفصلاً بتآليف اليوسي في كتاب **الزاوية الدلائية** ودورها الديني والعلمي والسياسي (ص 102 ـ 108) .

كلمة عن المحاضرات اليوسية

علم المحاضرات أحد العلوم التي تتفرع عن علم الأدب العربي وتكون شعبة من شعبه الهامة ، وعلم المحاضرات هذا عرف به أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده في كتابه مفتاح السعادة (1 : 226) فقال :

« علم المحاضرات ، وهو علم تحصُل منه ملكة إيراد كلام للغير مناسب للمقام من جهة معانيه الوضعية أو من جهة تركيبه الخاص ، وغرضه تحصيل تلك الملكة ، وفائدته الاحتراز عن الخطأ في تطبيق كلام منقول عن الغير على ما يقتضيه مقام التخاطب من جهة معانيه الأصلية ومن جهة خصوص ذات التركيب نفسه والفرق بينه وبين علم المعاني أن المعاني تطبيق المتكلم كلامه على مقتضى الحال وكلام الغير على خواص لائقة بحاله ، والمحاضرات استعمال كلام البلغاء أثناء الكلام في محل مناسب له على طريق الحكاية » .

كتب المحاضرات

وسرد حاجي خليفة في كشفه بعض ما ألف في هذا العلم من الكتب فقال :

« . . . ومن الكتب المصنفة فيه :

ربيع الأبرار ، **وأبو قماش** ، **والتذكرة الحمدونية** ، **وريحانة الأدب** ، **والعقد الفريد** ، **ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** ، لأبي القاسم حسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، وهو عمدة هذا الفن بين الفضلاء .

المحاضرات والمحاورات ، للسيوطي .

محاضرات الأبرار ومسامرة الأخيار ، للشيخ الأكبر محيي الدين محمد ابن علي المعروف بابن عربي . . . » .

ويتصنف في كتب المحاضرات كل كتاب أدبي تنوعت مواده وجمع محتواه بين الفائدة والإمتاع ،وكان على شاكلة الكتب التي في مسرد حاجي خليفة.

وقد ظهرت كتب المحاضرات تَتْرَى في العهود الإسلامية الماضية وتكاثرت أعدادها على ذلك المدى الطويل فشغلت حيزاً واسعاً في مكتبة الأدب العربي .

محاضرات اليوسي

بدأ اليوسي كتابه **المحاضرات** عام 1095 هـ الموافق سنة 1684 م ، بدأها وهو في رحلة ببلاد مصمودة قال عنها في **المحاضرات** نفسها :

« ورأيت في بلاد المصامدة وخصوصاً في بلد رجراجة من هذا كثيراً بقي عندهم موروثاً خلفاً عن سلف عندما يدورون على صلحائهم زائرين ، ولما حضرت معهم في الدور في هذه السفرة التي بدأت فيها هذه الأوراق وذلك سنة خمس وتسعين وألف لم أوافقهم في فعل كثير مما يفعلون مخافة أن يتخذني العوام حجة فيتغالون في ذلك ومع ذلك لم أخل نفسي من التبرك بأمور قريبة لا بأس بها » .

ويذكر اليوسي الباعث على الأخذ في تأليفها فيقول :

« وإني قد اتفقت لي سفرة بان بها عني الأهل شغلاً وتأنيساً ، وزايلني العلم تصنيفاً وتدريساً ، فأخذت أرسم في هذا المجموع بعض ما حضر في الوطاب ،مما أحال فيه أو حان له إرطاب ، وسميته المحاضرات ليوافق اسمه مسماه ، ويتضح عند ذكره معناه ، وفي المثل : « خير العلم ما حوضر به » وإنما أذكر فيه فوائد وطرفاً ، وقصائد ونتفاً ، وذلك مما اتفق لي في أيام الدهر من ملح ، مما ينتقى ويستملح ، ولا أذكر نادرة فيها معنى شريف إلاّ شرحته ، ولا لطيف إلاّ وشحته ، وذلك هو لباب الكتاب ، وفائدة الخطاب ، والله الملهم للصواب .

وقد أذكر بعض ما صورته هزل يستهجن ، وفيه سر يستحسن ، وكما أن المقصود من الأشجار ثمارها ، فالمطلوب من الأخبار أسرارها .

وإنما حملني على الأخذ فيه أمور منها ابتعادي من البطالة ، التي هي مدرجة الجهالة والضلالة ، ومنها إفادة جاهل ، أو تنبيه غافل ، ومنها تخليد المحفوظ لئلاّ ينسى ، وتفصيله نوعاً وجنسا ، ومنها استمطار علم جديد، عند الاشتغال بالتقييد ، فإن العلم كالماء نباع ، وبعضه للبعض تباع ، وما هو في قلب الذكي الفؤاد ، إلاّ كما قال امرؤ القيس عند وصف الجواد:

يجم على الساقين بعد كلالـــه   جموم عيون الحسي بعد المخيض

ومنها تعليل النفس ، ببعض الأنس ، فإن النفس ترتاح إلى الأحماض، وتستشفي بروحه من الامضاض ، ولا سيما مثلي ممن ترامت به الأقطار ، وتباعدت عنه الأوطان والأوطار » .

حاضر اليوسي في كتابه **المحاضرات** بنسبه وباسمه وكنيته وما جرى له في ذلك من الاتفاقات الحسنة والمبشرة ، وأورد مع ذلك فوائد التسمية والتكنية والتلقيب وما تعتد به العرب في ذلك من التكرمة والتنويه أو من الضعة والتحقير .

وجاء فيها بمباحث أصولية وفقهية وصوفية فيها دقة نظر وسعة أفق واعتبارات بالأحوال وتعليلات متنزلة على أمور نفسية واجتماعية يكون بها اليوسي نظاراً أريباً ومفكراً حصيفاً .

وأتى بنصوص أدبية شعراً ونثراً مما أنتجه أدباء العربية في مختلف العصور التي سبقت زمانه .

وأورد الملح والمضحكات من غير أن يأتي من ذلك بما يخل بوقار العلماء ورصانة الأشياخ .

وضمنها الأجوبة المسكتة ، وأبيات المعاني ، وطائفة من الملاحن والألغاز ومسرداً بالأوليات .

وعقد اليوسي باباً في المواعظ والحكم والوصايا افتتحه بشيء من كلام الرسول عليه السلام ثم قفاه ببعض من كلام الصديق والفاروق رضي الله عنهما، ثم قفى ذلك بزهاء الأربعمائة من حكم الإمام علي كرم الله وجهه ووصاياه ، وأتلى ذلك بأشعار بعضها لعدي بن زيد العبادي وبعضها لأبي العتاهية وبعضها للوراق ثم أورد نونية البستي فبائية صالح بن عبد القدوس بعدهما تائية المقرىء اليمني .

ثم أنهى اليوسي محاضراته بمسرد سمى فيه من لقيهم من الأشياخ والعلماء من دون أن يقول عنهم شيئاً ، وابتدأ ذلك المسرد يقولُ ما لفظه :

« خاتمة – أسرد فيها من حضر الآن في فكري ممن لقيت وتبركت به ممن اتسم بالخير واشتهر بالصلاح تبركاً بهم فإنه قد قيل : « تنزل الرحمات عند ذكر الصالحين ولم أتعرض لأحوالهم لأن ذلك يطول ، والكتاب غير موضوع له فاكتفيت بذكر أسمائهم » .

وكان عدد الذين ذكرهم في المسرد نيفاً وخمسين ، وبانتهاء ذلك المسرد تنتهي **المحاضرات** اليوسية .

وأبواب **المحاضرات** وفصولها مختلفة الأحجام متفاوتة المقادير ، واليوسي يفصل ما بينها بالعبارة القرآنية التي تقول : (لله الأمر من قبل ومن بعد) وهو قد حجز ما بين الأقسام بذلك الفاصل خمساً وثلاثين مرة .

ويفتتح اليوسي بعض الأبواب بتقدمات كالذي فعله في باب الملح إذ قال :

« رأيت أن ألم بملح من الأدب تتميماً للكتاب ، وإمتاعاً لذوي الألباب ، فإن النفس ملول والأذن مجّاجة ، وفي التلون والانتقال تطييب لها وتنشيط كما قيل :

لا يصلح النفس إن كانت مدبرة إلاّ التنقل من حال إلى حال

وذلك كله مما يصلح للمحاضرات ويوافق شرط الكتاب ويعد من الأدب »

وكما قال وهو يورد المضحكات :

« وهذه نبذة في المضحكات وكل ما تنبسط به النفس من الملح ، واعلم أن هذا النوع هو للعقل فاكهة كما أن الحكمة السابقة هي غذاؤه وقوامه ، فلا بد من كل منهما في استصلاح العقول وإزالة جساوتها وتنمية ذكائها غير أن الملح تكون بقدر الحاجة كالملح للطعام » .

وقدم للألغاز وأبيات المعاني بقوله :

« وهذه نبذة من أبيات المعاني والالغاز وأتبعناها للحكم والأجوبة المسكتة للمناسبة الظاهرة ، فإن الكل منشؤه الذكاء والفطنة ، والألغاز وإن كانت – كما قال المحققون – صنعة البطالين لا نريد أن نخلي الكتاب من شيء منها لقصد التفنن والإحماض . . . » .

ويبدو اليوسي في **المحاضرات** جَدِلاً شديد العارضة قوي الحجة مقتدراً على الإفحام .

واليوسي في **المحاضرات** جريء مقدام يمحص ويحقق ويجلي العويص ويجهر برأيه جهراً لا يخافت فيه .

وتشهد **المحاضرات** على اطلاع اليوسي الكبير وعلمه الغزير ومشاركته الواسعة في مختلف العلوم والفنون .

والمحاضرات تشبه في مواضع منها أن تكون رحلة سجل فيها اليوسي تنقلاته هنا وهناك وأخبر فيها بالذي رأى وسمع ، وذكر فيها ما جريات وقعت له مع الناس الذين التقى بهم من جميع المستويات .

وكذلك تضاهي **المحاضرات** أن يكون فيها نوع من الترجمة الذاتية ، فإن اليوسي ذكر بها اسمه وكنيته ونسبه ومن تعلم عليهم وأشياء مما جرى عليه من خير وشر .

ويمثل أسلوب اليوسي في **المحاضرات** نمطاً من أسلوب الكتابة في عصره إن لم يكن به طبقة عليا بين الكتاب فهو من المجيدين الفارهين .

ثم نختم كلمتنا في **المحاضرات** بما كتبه الشيخ عبد الحي الكتاني بشأنها وهو يترجم اليوسي في **فهرس الفهارس** : (2 : 469) فقال :

« وكتابه **المحاضرات** عجيب في بابه غريب في ترتيبه وأسلوبه وكأنه في ترجمة نفسه ألفه بسبب ما كان وقع بينه وبين أبي زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي رحمهم الله لما افتتح التفسير بالقرويين ، والكتاب المذكور كاف في مقدار معرفة تصرفه وسيلان قلمه الزاخر » .

طبع المحاضرات اليوسية

طبعت المحاضرات اليوسية على الحجر بفاس من سنة 1317 هـ وبمرور الزمن عادت تلك الطبعة نادرة يتغالى بثمنها الكتبيون ويشاحون فيه فأصبح الحصول عليها عسيراً غير يسير .

ثم طبعت ثانية في دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر بالرباط في سلسلة الأدب برقم (1) بإشراف الدكتور محمد حجي معتمداً فيها الطبعة الفاسية مع الرجوع عند الإشكال إلى مخطوطة المكتبة العامة بالرباط عدد 2329 ك . فسدت هذه الطبعة الحاجة العجلى إليها ، ولكن **المحاضرات** ظلت بحاجة إلى طبعة محققة تحقيقاً وثيقاً وأميناً معه الهوامش والشروح والتخريجات التي تساعد على قراءتها قراءة مأمونة ومفيدة ، وذلك ما قمنا عليه بنفس طويل في هذه الطبعة التي قضينا في إعدادها ثلاثين شهراً واصبة دائبة .

مخطوطات المحاضرات اليوسية

مخطوطات **المحاضرات** عديدة ، وهي محفوظة في مكتبات عامة وخاصة داخل المغرب وخارجه وما اعتمدناه منها في هذه الطبعة ثلاث :

1) مخطوطة الخزانة العامة بالرباط (رقم 32 ج) وهي بخط مغربي دقيق جميل جداً ملوّن بالحمرة ، في هوامشها ط، ر قليلة تدلّ على أن كاتبها له حظ من علم اللغة ، وتوجد في مجموع مسبوقة **بديوان اليوسي** (من صفحة 245 إلى صفحة 366) وكان انتساخها بعد وفاة المؤلف بنحو خمسين سنة وكتب في نهايتها ما نصه :

« انتهى بحمد الله وحسن عونه من خط المصنف بواسطتين عند العصر يوم الاثنين السابع والعشرين من رجب الفرد سنة إحدى وخمسين ومائة وألف »

وهي التي اعتمدنا نصها ، ونشير إليها في الهوامش بالأصل .

2) مخطوطة المكتبة العامة بالرباط (رقم 20329 ك) . وهي أقدم زمناً من السابقة ببضع عشرة سنة وبها نصوص شعرية ونثرية زائدة ، ولكنها أقل ضبطاً وإتقاناً وقد كتب ناسخها بآخرها ما نصه :

« انتهى ما وجد من هذا التقييد على يد محمد بن الطيب بن علي الحسني وكان الفراغ منه ضحوة الأربعاء العشرين من جمادى الأولى عام ستة وثلاثين ومائة وألف » .

وهي التي رمزنا إليها في الهوامش بالحرف : (ك) .

3) مخطوطة كانت في ملك العلاّمة الوزير الكاتب الشاعر المؤرخ أبي عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس المتوفى سنة 1294 هـ مؤلف كتاب **الجيش العرمرم الخماسي** الشهير ، أعارنا إياها حفيده سيدي أحمد أكنسوس أحد شيوخ التربية والعلم بمراكش . وتأتي أهميتها من الشروح والتصويبات التي كتبها على طررها أبو عبد الله أكنسوس بخط يده وقد أثبتنا جلها على الهوامش . وهذه المخطوطة هي التي نشير إليها بالحرف (س) .

واسترفدنا كذلك الطبعة الفاسية في المقابلة والتصحيح فأجْدَتْ وأفادت ، ودللنا عليها في الهوامش بالحرف (ح) .

والزائد الذي أضفناه إلى الأصل رواية عن المخطوطتين : الكتانية أو الكنسوسية أو عن الطبعة الفاسية وضعناه بين معقوفين هكذا : [...] والثابت في الأصل إذا نقص من المخطوطتين أو من الطبعة الفاسية جعلناه بين حاصرتين كالتالي : <....> وحصرنا الآي القرآنية داخل قوسين هكذا (...) والكلم النبوية داخل قوسين هكذا « ... » .

عملنا في التحقيق

* حررنا النص تحريراً وثيقاً أميناً ، وبذلنا في ذلك غاية الوسع وأمد الطاقة.

* أثبتنا الاختلاف الموجود بين المخطوطات الثلاث التي اعتمدناها ، وأشرنا كذلك إلى الاختلاف الواقع بينها وبين الطبعة الفاسية ، ولكننا لم نستقص في المقابلة إلى الحد الذي يجعلنا نتتبع توافه الأمور .

* غطينا المحاضرات بالشروح والتخريجات والتراجم ، وسوّدنا طررها بالهوامش والتكملات ، وتجاوزنا ذلك إلى أن حاضرنا مع اليوسي بطريف الشعر ، ونادر الخبر ، وبالنقل العزيز ، قصد إغناء النص بما يمتع ويفيد ، واستحثاثاً للقارىء على الاسترسال في القراءة وهو الراغب الحريص .

* وضعنا عناوين يتعرف منها القارىء على ما تحتويه المحاضرات من مختلف المباحث وأشتات المواضيع ، وجعلناها بين معقوفين هكذا [. . .] إشارة إلى أنها من عملنا لا من وضع المؤلف .

* ألحقنا بالمحاضرات فهارس يهتدي بها القارىء والباحث إلى ما يريدان منها وجعلناها أصنافاً كالتالي :

فهرس الأعلام .

فهرس الأجناس والأمم والطوائف .

فهرس البقاع والآثار .

فهرس الأشعار .
فهرس أنصاف الأبيات .
فهرس الأرجاز .
فهرس الملحون .
فهرس الكتب .
فهرس الأمثال .

• أثبتنا بالآخر المصادر التي كثر رجوعنا إليها في الشروح والتراجم والتخريجات .

أما بعد فقد تحملنا عناء التحقيق عسى أن يتحمل القارىء كلفة القراءة آملين أن يعود كلٌّ بمردوده فيما ابتغاه من الإفادة والاستفادة ؛ آمين . والحمد لله رب العالمين .

المحققان